Journal of Humanitarian and Applied Sciences - مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية
(رقم الإيداع المحلي - 90-2020)
كلية الآداب والعلوم قصر خيار - جامعة المرقب
Volume 9 - Issue 17
المجلد 9 - العدد 17

المُؤرخون المسلمون والفتنة الكبرى

(الخلفيَّة والمنهج والنظرة النقدية)

د. محمود إدريس علي بك
محاضر-تاريخ إسلامي
كلية الآداب والعلوم-قصر خيار -جامعة المرقب
mabek@elmergib.edu.ly

تاريخ استقبال البحث: 2025/11/02	تاريخ القبول: 2025/11/22

المُلخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل إشكالية تدوين الفتنة الكبرى في التراث الإسلامي، ولا يهدف البحث إلى إعادة سرد أحداث الفتنة الكبرى (35-41هـ/656-661م)، بل إلى دراسة المؤرخين، الذين تصدوا لهذه المهمة، وكشف خلفياتهم، ومناهجهم، والنظرة النقدية الحديثة لهم.

يجادل البحث بأن تاريخ الفتنة -كما وصل إلينا -ليس تسجيلاً مباشراً، بل هو بناء تاريخي مركب، تم تجميعه وتدوينه بعد الحدث بقرون في سياقات سياسية ومذهبية مختلفة؛ حيث يستعرض مدارس تدوين التاريخ المختلفة، والتي اتسمت كل منها بخاصية مختلفة من أهمها: الرواة الأوائل (الإخباريين)، مثل: أبي مخنف وسيف بن عمر، والمصنفين الكبار كالطبري والبلاذري، مُبيناً كيف شكَّلت انحيازاتهم المادة الخام.

ثم يُحلل الانقسام الجذري في الروايات، مفصلاً الخط الأول (رواية المؤامرة)، الذي يُرجع الفتنة إلى محرض خارجي وهو عبد الله بن سبأ، والخط الثاني (رواية الصراع الداخلي)، الذي يركز على الأسباب الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية كجوهر للأزمة، ويتناول بالتحليل كيفية تعامل المؤرخين العظام (الطبري، البلاذري، وابن كثير) مع هذا التناقض الكبير في الروايات التاريخية.

الكلمات المفتاحية: الفتنة الكبرى -تدوين التاريخ الإسلامي -الروايات التاريخية -الإخباريين – المؤرخين.

Muslim Historians and the Great Fitna

(Background, Methodology, and Critical Perspective)

Dr. Mahmoud Idris Ali Bek
Lecturer – Ancient History
Faculty of Arts and Sciences – Gasr Khiyar – Elmergib University
mabek@elmergib.edu.ly

Abstract:

This research examines the problematic nature of recording the events of the Great Fitna in Islamic heritage, focusing on the historians who documented it rather than retelling the events themselves. It argues that the history of the Fitna did not reach us as a direct contemporary record, but as a complex historical construct compiled centuries later within shifting political

and sectarian contexts. The study reviews major historiographical schools, including early narrators such as Abu Mikhnaf and Sayf ibn ʿUmar, as well as later compilers like al-Tabari and al-Baladhuri, highlighting how their backgrounds and biases shaped the transmitted material.

It also analyzes the fundamental divide between two major narrative trends: the conspiracy narrative, which attributes the Fitna to an external instigator (ʿAbdullah ibn Sabaʾ), and the internal conflict narrative, which emphasizes economic and social factors as the true causes. Finally, the research explores how leading historiansal-Tabari, al-Baladhuri, and Ibn Kathir addressed these conflicting accounts.

Keywords: The Great Fitna - Recording of Islamic History - Historical Narratives - Narrators (Akhbariyun) - Historians.

المُقدَّمة:

تُعدُّ الفتنة الكبرى (35-41هـ/656-661م) الحدث التأسيسي والانقسامي الأبرز في تاريخ الإسلام، فهي الصدمة الأولى التي حطَّمت نموذج الجماعة المُوحَّدة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وألقت بظلالها السياسية والعقائدية والفقهية على مسار التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ويهدف هذا البحث إلى دراسة المؤرخين الذين تصدوا لتدوين هذه الكارثة، وليس الحدث نفسه، فالمشكلة لا تكمن فقط في فهم ماذا حدث، بل في فهم كيف كُتب ما حدث.

تبدأ شرارة هذه الفتنة في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، حيث تظافرت عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، فيما عُرف بسياسات الولاة، وإدارة بيت المال، فأدت إلى حالة من التململ في الأمصار، خاصة الكوفة والبصرة ومصر، وبلغ هذا التململ ذروته بحصار الخليفة في داره بالمدينة المنورة واغتياله عام (35هـ/41م) (فلهوزن، 1968).

كان اغتيال الخليفة عثمان هو المشكلة المركزية (The core problem)، التي واجهت كل مؤرخ لاحق، فبمجرد بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة، انفتح الباب على مصراعيه من خلال عدة مطالب تباينت في هدفها، وتمثلت في المطالبة بالقصاص، فقد رفض الصحابة الكبار مثل: طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، بدعم من السيدة عائشة أم المؤمنين، الاعتراف بشرعية البيعة قبل القصاص من قتلة عثمان، مما أدى إلى أول حرب أهلية في الإسلام، وهي معركة الجمل عام (36هـ/656م).

وكان من بين المشكلات صراع الشرعيات، ففي الشام، رفض الوالي معاوية بن أبي سفيان (قريب الخليفة عثمان) مبايعة الخليفة علي، رافعاً قميص الخليفة عثمان وداعياً للقصاص، وتطور هذا الرفض إلى مواجهة عسكرية هائلة في معركة صفين (37هـ/657م)، فضلاً عن الانقسام داخل الانقسام، عندما جنحت المعركة للتحكيم الذي قُبل لوقف إراقة الدماء، وانشقت جماعة عن جيش الخليفة علي رافضة تحكيم الرجال في دين الله، والذين عُرفوا بالخوارج.

وقد انتهى هذا الفصل الدامي باغتيال الخليفة علي بن أبي طالب على يد عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج عام (40هـ/660م). وبعد فترة قصيرة، تنازل ابنه الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان عام (41هـ/661م)، فيما عُرف بعام الجماعة الأول، لتبدأ بذلك حقبة الدولة الأموية.

إشكالية البحث (The Problem):

كل هذه الأحداث، التي شكلت انقسامات عُرفت بالسنّة، والشيعة، والخوارج، لم تُدوّن في حينها؛ بل كُتبت بعد أكثر من 100 إلى 200 سنة، في ظل سلالات حاكمة متتابعة وهي الأمويين ثم العباسيين، كانت لها مصلحة مباشرة في كيفية تذكّر

هذه الأحداث، ويواجه الباحث في هذا المجال غابة من الروايات المتناقضة، فالمادة التاريخية التي وصلتنا (الأخبار) ليست تسجيلاً موضوعياً، بل هي انعكاس للصراعات السياسية والقبلية والمذهبية التي تلت الفتنة، فكيف تعامل المؤرخون المسلمون الأوائل (الإخباريون)، والكبار (المصنفون) مع هذا الإرث المتفجر؟.

فرضية الدراسة:

تنطلق الدراسة من فرضية أن تاريخ الفتنة، كما نعرفه اليوم هو بناء تاريخي (Construct Historical) مركب، فالمؤرخون الكبار (مثل الطبري والبلاذري) لم يحاولوا حل التناقضات، بل اتبعوا منهج جمع الروايات عبر نظام الأسانيد، تاركين مهمة النقد والترجيح للقارئ، أما المؤرخون المتأخرون (مثل ابن كثير وغيره)، فقد حاولوا تنقية التاريخ، وتغليب رواية تتوافق مع العقيدة السنية التي استقرت، ويكشف النقد الحديث عن الأجندات الكامنة خلف الرواة الأوائل الذين شكلوا المادة الخام لهذا التاريخ.

خطة البحث:

لتحليل هذه الإشكالية، سيتم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة مباحث يتناول المبحث الأول منها: الخلفيات الفكرية والسياسية لأهم المؤرخين، بدءاً بالرواة الأوائل (الإخباريين) وصولاً إلى المصنفين الكبار، والنظرة النقدية الحديثة لهم، ثم يحلل المبحث الثاني خطوط الروايات المتناقضة (رواية المؤامرة مقابل رواية الصراع الداخلي)، وأخيراً يدرس المبحث الثالث بالتفصيل كيف طبق عمالقة التدوين (الطبري، البلاذري، ابن كثير) مناهجهم عملياً للتعامل مع هذا التناقض، وتُختتمُ الدراسة بخاتمة تلخص أهم النتائج حول مصداقية هذا التاريخ.

المبحث الأول: أهم المؤرخين (خلفياتهم، مناهجهم، والنظرة النقدية):

إن فهمنا للفتنة الكبرى ليس فهماً مباشراً للحدث، بل هو فهم مُصفّى (Filtered) عبر عيون وروايات رجال عاشوا بعد الحدث بعشرات، بل مئات السنين، إذ لم يُكتب تاريخ الفتنة في زمنها، بل تم تناقلهُ شفهياً لعقود طويلة قبل أن يُدوّن، وهذه المرحلة الشفهية، هي المفتاح لفهم كل ما وصلنا.

وقد تشكلت المادة الخام للفتنة في بيئات متصارعة (الكوفة، البصرة، الشام، المدينة)، وحمل كل إخباري أو راوٍ معه ولاءاته القبلية، وانحيازه السياسي، وموقفه المذهبي. وعندما جاء المصنفون الكبار في العصر العباسي، لم يكونوا مؤرخين على الحياد، بل كانوا مُجمعين (Compilers)، ومحررين (Editors) ذوي منهج محدد، يعملون في سياق سياسي وثقافي أراد تأطير هذه الذاكرة المؤلمة (ابن تيمية، 1991).

1- المؤرخون الأوائل (الإخباريون والرواة):

هؤلاء هم صانعو المادة الخام، إذ لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الحديث، بل كانوا إخباريين (Akhbaris)، أي جامعي أخبار (Khabar) وقصص وأشعار حول حدث معين، وكانت أعمالهم (التي فقدت معظم أصولها)، عبارة عن كُتب صغيرة متخصصة (Monographs)، مثل (كتاب الجمل) أو (كتاب صفين) أو (كتاب مقتل عثمان) (الدوري، 2000)، وكان هؤلاء الإخباريون ينتمون إلى مدارس جغرافية وسياسية محددة وهي:

أ) مدرسة العراق (الكوفة والبصرة):

كانت العراق هي مسرح الفتنة الأكبر (الجمل، صفين، النهروان)، ومن الطبيعي أن تخرج منها أغزر الروايات وأكثرها تفصيلاً؛ لكنها كانت أيضاً الأكثر انقساماً، وكان من أهم رواتها أبو مخنف (لوط بن يحيى، (ت:157هـ/773م)، الذي يُعتبر شيخ الإخباريين العراقيين، وأهم مصدر لروايات الكوفة، لم تصلنا كتبه الأصلية مثل (كتاب الجمل) أو (كتاب صفين)، لكن المؤرخين الكبار – وعلى رأسهم الطبري – نقلوا عنه آلاف الروايات، أما عن خلفيته فهو كوفي، ينتمي لقبيلة الأزد، عاصر أواخر الدولة الأموية وبدايات الدولة العباسية، وهو لم يكن محايداً، فبيئته الكوفية كانت تميل للتشيع السياسي، بمعنى الميل لآل البيت، ومعارضة الحكم الأموي (مصطفى، 1983).

أما منهجه فهو إخباري يعتمد على السند؛ لكنه غالباً ما يستخدم أسانيد قصيرة أو جماعية مثل استخدام عبارة عن أشياخنا من أهل الكوفة، ورواياته غنية بالتفاصيل الدرامية، والحوارات والخطب والأشعار، وتركز بشكل كبير على العوامل الداخلية للفتنة مثل السياسات المالية للخليفة عثمان، وغضب أهل الأمصار، والمظالم الاجتماعية (مصطفى، 1983).

ويرى النقاد المحدثون أن أبا مخنف هو المصدر الرئيسي للرواية المعارضة، وللرواية الرسمية (الأموية لاحقاً)، فرواياته رغم ميلها الواضح، تُعتبر أكثر واقعية في تحليل الأسباب الداخلية للفتنة من الروايات التي تعتمد على المؤامرة (فلهزون، 1968).

أما سيف بن عمر التميمي (ت: 180هـ/796م)، فيمكن اعتباره الراوي النقيض لأبي مخنف، وخلفيته أيضاً من الكوفة، وتحديداً من بني تميم، عاش في نفس فترة أبي مخنف، ويعتمد عليه الطبري بشكل شبه حصري في تاريخ حروب الردة والفتوحات، وبشكل كبير في بدايات الفتنة، لاسيما أحداث الدار ومقتل الخليفة عثمان، ويعتبر المتهم الأكبر من قبل النقاد المحدثين (بداية من طه حسين) باختراع رواية المؤامرة (أمحزون، 2007) (ينظر: حسين، 1947)، فرواياته هي التي قدمت شخصية عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم، كالمحرك الخفي لكل الأحداث، بهدف تبرئة الصحابة وأهل المدينة من دم عثمان، وإلقاء اللوم على مندسين من خارج الجماعة، ويرى النقاد أن هذه الرواية خدمت لاحقاً، الاتجاه الرسمي السني الذي أراد الحفاظ على قدسية جيل الصحابة، كما أن علماء الحديث (المحدثين) أنفسهم مثل ابن حبان والنسائي، كانوا قد اتهموا سيفاً بالوضع (أي اختراع الأحاديث والروايات) (الذهبي: 1963)، (للمزيد حول نقد سيف بن عمر، ينظر: العسكري، 1974).

ب) مدرسة المدينة (الحجاز):

كانت المدينة مركز الشرعية والسلطة الأولى، لكن دورها تراجع بعد مقتل عثمان، وتميل روايات أهلها التي جمعها الواقدي وابن سعد لاحقاً إلى التركيز على الجوانب الفقهية والقانونية، وغالباً ما تتجنب الخوض في التفاصيل الدموية للصراع، ويعد الزهري (ت: 124هـ/741م)، الأب الروحي –إن صح التعبير– لتدوين الحديث والسيرة في المدينة، وهو من كبار التابعين، كان مقرباً جداً من البلاط الأموي لاسيما الخليفة عبد الملك بن مروان والخليفة هشام بن عبد الملك، وبصفته مُحدّثاً، فإنه كان من أوائل الذين طبقوا نظام الإسناد بصرامة، ويمكن القول بأن قربه من الأمويين جعل رواياته التاريخية (خاصة حول الفتنة) موضع شك، حيث يُنظر إليه على أنه أسهم في صياغة رواية شرعية للأحداث تبرر الموقف الأموي، أو على الأقل تُسكِت عن جوانب الصراع التي تُدينهم (العلائي، 1981).

2- المؤرخون الكبار (المصنفون):

يتميز القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي (العصر العباسي الذهبي)، بظهور عمالقة الكتابة التاريخية، ويتمثل دورهم في جمع أعمال الإخباريين الأوائل المبعثرة، وصياغتها في موسوعات تاريخية ضخمة، ويأتي البلاذري (ت: 279هـ/892م) على رأس القائمة، وهو فارسي الأصل، عاش في بغداد، وكان قريباً من البلاط العباسي، ويُعتبر البلاذري مؤرخاً أقرب للمعنى الحديث من الطبري، فمنهجه ليس حولياً (Annalistic) (سنة بسنة)، بل وضوعي" أو سيري (Biographical)، فكان منهجه في كتابه العظيم (أنساب الأشراف)، يقوم على جمع كل الروايات المتعلقة بشخصية واحدة (مثل أمر عثمان أو أمر علي) في مكان واحد (البلاذري، 1996).

وهو لا يكتفي بصف الروايات بإسنادها كما يفعل الطبري، بل كثيراً ما يدمج (Synthesizes) الروايات في نص واحد متماسك، قائلاً في بدايته رووا، أو قالوا، هذا يجعل نصه أسهل للقراءة ولكنه أصعب للنقد المصدري؛ لأنه يخفي المصدر الإخباري الأصلي (أبو مخنف أو سيف) ومع ذلك، فقد حافظ لنا على روايات مهمة لم يحفظها الطبري (ينظر: مصطفى، 1983).

أما الطبري (ت: 310هـ/922م)، فهو فارسي (من طبرستان)، عاش في بغداد، وكان مُحدّثاً وفقيهاً ومفسراً قبل أن يكون مؤرخاً، طبق منهج المحدثين على التاريخ، وكان كتابه (تاريخ الرسل والملوك) مرتب حولياً (سنة بسنة)، أما طريقته فتتميز بالأمانة في النقل، حيث يضع الروايات المتناقضة جنباً إلى جنب كما هي، كل واحدة بإسنادها الكامل (الطبري، 1991)، (مصطفى، 1983)، دون أن يتدخل للترجيح أو النقد إلا نادراً، ففي أحداث مقتل عثمان، يضع رواية سيف بن عمر (المؤامرة) مباشرة بجوار رواية أبي مخنف (الصراع الداخلي) (الطبري، 1991).

ويمكن القول بأن الطبري ليس محايداً كما يبدو، فالترتيب (Order) الذي يضع به الروايات هو فعل تحريري (Editorial Act)، كما أن مجرد اختياره (Selection) لروايات سيف بن عمر، وإعطائها كل هذه المساحة هو قرار منهجي، يُظهر رغبته في بناء تاريخ متوازن، يُرضي الجماعة السنية التي تبلورت في عصره، والتي أرادت تبرئة الصحابة، وفي نفس الوقت الاعتراف بمظالم أدت للفتنة (الطبري، 1991)، (مصطفى، 1983)

3- الآراء المعاصرة والنقد (الهستوريوغرافيا)

تباينت نظرة المؤرخين المُحدثين (في القرن العشرين والحادي والعشرين) إلى هذه المادة التاريخية المعقدة، ويمكن لنا تصنيفها وفق ما يلي:

أ) نقد الإسناد التاريخي: قاد المدرسة الشكية (Skeptical School) أمثال ألبرخت نوت (Albrecht Noth)، الذين جادلوا بأن الإسناد في الروايات التاريخية على عكس الحديث الفقهي، غالباً ما يكون زخرفاً أضيف لاحقاً تحديداً في العصر العباسي، لإعطاء شرعية لرواية ما، هم يرون أن الإسناد لا يضمن الصحة، بل يشير فقط إلى المدرسة (كوفية، مدنية) التي خرجت منها الرواية (محمود الطحان، 2002).

ب) تحليل المضمون (Tendenzanalyse): بدلاً من التركيز على السند، يركز الباحثون المحدثون على المضمون (المتن) للبحث عن الاتجاهات (Tendencies)، هذا المنهج يكشف بوضوح أن روايات سيف بن عمر لها اتجاه واضح، وهو

تبرئة الصحابة، وإلقاء اللوم على مؤامرة خارجية (ابن سبأ)، وتصوير الفتنة كسوء تفاهم بين أطراف حسنة النية (الطبري، 1991).

أما روايات أبي مخنف، فهي ذات اتجاه واضح، حيث تركز على الأسباب الاقتصادية والاجتماعية، (مظالم الولاة، سياسات بيت المال)، وتصور أهل العراق كضحايا لسياسات خاطئة (الذهبي، 1963).

ت) الفتنة كصراع اقتصادي –اجتماعي: يرى باحثون مثل هشام جعيط أن الروايات خاصة العراقية، تخفي وراءها صراعاً حقيقياً، فهي لم تكن مجرد مؤامرة، بل كانت صراعاً بين الجيل الأول (السابقين) الذي حكم من المدينة، وجيل الفاتحين (أهل الأمصار)، الذين شعروا بالتهميش السياسي والاقتصادي رغم أنهم من حمل عبء الفتوحات (جعيط، 1999).

ويمكن القول بأن التاريخ "الرسمي" للفتنة، كما وصل إلينا عبر الطبري، هو تاريخ توفيقي (Reconciliatory History)، بمعنى: إنه ليس ما حدث، بل هو ما اختار العصر العباسي أن يتذكره عن الفتنة، فقد تم تجميد الصراع في شكل روايات متناقضة، ولكن مقبولة، تسمح ببناء هوية أهل السنة والجماعة، التي تحترم جميع الصحابة بمن فيهم علي ومعاوية وعثمان، وتلقي باللوم إما على مؤامرة ابن سبأ، أو على خطأ في الاجتهاد.

المبحث الثاني: انقسام الروايات:

عندما ننظر إلى كمّ الروايات التي جمعها المُصنفون الكبار مثل الطبري والبلاذري حول الفتنة، نكتشف أنها ليست مجرد فوضى عشوائية من الأخبار المتضاربة. بل يمكن بوضوح، فرز هذه الروايات وتصنيفها في خطين سرديين (Narrative Lines) رئيسيين. هذان الخطان لا يختلفان في التفاصيل فحسب، بل يقدمان فلسفتين مختلفتين تماماً ومتعارضتين جذرياً لتفسير سبب اندلا ع الفتنة.

1– الخط الأول: رواية المؤامرة (The Conspiracy Narrative):

هذا الخط السردي هو الأشهر والأكثر انتشاراً في الذاكرة السنية التقليدية، وهو يقدم تفسيراً خارجياً (Exogenous) للفتنة، ويمكن توضيحها من خلال تفكيكها وفق ما يلي:

أ) المصدر الرئيسي: وكما أشرنا في المبحث الأول، يُعتبر الراوي الكوفي سيف بن عمر التميمي، هو المصدر شبه الحصري لهذا الخط، وقد اعتمد عليه الطبري اعتماداً كبيراً جداً في تغطية بدايات الفتنة ومقتل الخليفة عثمان، ومن الطبري انتشرت هذه الرواية في كتب التاريخ اللاحقة (الذهبي، 1963، ينظر أيضًا: العسكري، 1974).

ب) فلسفة الرواية (الحبكة): تقوم هذه الرواية على فكرة بسيطة وواضحة، هي فكرة الجماعة (مجتمع الصحابة والتابعين في الأمصار)، التي كانت موحدة، وراضية، ومستقيمة، والخليفة عثمان كان عادلاً، والصحابة في المدينة كانوا متآلفين، وأن الفتنة لم تنبع من داخل المجتمع الإسلامي، بل زُرعت من خارج على يد عميل محرض (Agent Provocateur)، (الطبري، 1991).

ت) البطل المحوري (المتهم): الشخصية المركزية في هذه الرواية هي عبد الله بن سبأ، الذي تقدمه روايات سيف كيهودي من صنعاء أسلم في عهد عثمان [الطبري، 1991).

ث) الآلية: تقول الرواية أن ابن سبأ بدأ رحلته في الحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، وأخيراً استقر في مصر، وفي كل مكان كان يبث عقائد سرية، مثل فكرة أن علياً هو الوصي، وأن له حقاً إلهياً في الخلافة، وفكرة الرجعة، (الطبري، 1991).

ج) الهدف: كان هدفه حسب الرواية، إفساد دين المسلمين، وتفريق جماعتهم، وقد وجد أتباعاً له عُرفوا بالسبئية من غوغاء الأمصار، وحديثي العهد بالإسلام، وهم الأعراب الذين لم يترسخ الإيمان في قلوبهم، (الطبري، 1991).

ويمكن لنا تفسير أحداث الفتنة بناءً على هذه الحبكة، بأن التململ في الأمصار: ليس سببه سياسات الولاة أو المظالم الاقتصادية، بل هو نتيجة تحريض ابن سبأ وأتباعه (الطبري، 1991)، فالذين حاصروا الخليفة وقتلوه لم يكونوا أهل الأمصار، أو وفود المظالم، بل كانوا السبئية المتآمرين الذين اندسوا وسط الوفود (الطبري، 1991).

وتقوم هذه الرواية بتبرئة ساحة الصحابة في المدينة مثل علي وطلحة والزبير تماماً، فهي تؤكد أنهم كانوا ضد الحصار، وأنهم أرسلوا أبناءهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير، للدفاع عن دار الخليفة، لكن الغوغاء (السبئية) تغلبت عليهم ونفذت جريمتها غدراً (الخلال، 1989).

وتفسر رواية سيف معركة الجمل، بأنها مؤامرة من السبئية، فعندما كاد علي وطلحة والزبير أن يتصالحوا، قام السبئية المندسون في الجيشين بإشعال القتال ليلاً، فظن كل طرف أن الآخر غدر به، ونشبت المعركة رغماً عن قادة الطرفين (الطبري، 1991)، (ينظر: حسين، 1947)، أما الوظيفة (الهدف)، فإن هذه الرواية لها وظيفة سياسية وعقائدية واضحة، وهي الحفاظ على قدسية جيل الصحابة (عدالة الصحابة)، وأنها تنقل المسؤولية عن أول دم حرام في الإسلام من الداخل (الصحابة والتابعين) إلى الخارج (المتآمر اليهودي)، وهذا التفسير كان مريحاً جداً للضمير الديني لأهل السنة والجماعة الذي تبلور لاحقاً، والذي يقوم على احترام جميع الصحابة (الطبري، 1991).

2– الخط الثاني: رواية الصراع الداخلي (The Internal Conflict Narrative):

هذا الخط السردي أقل شهرة شعبياً، لكنه أكثر اعتماداً لدى الباحثين المحدثين؛ لأنه يقدم تفسيراً داخلياً (Endogenous) للفتنة، ويرى أنها انفجار لأزمات حقيقية: سياسية واقتصادية واجتماعية، ويمكن توضيحها من خلال تفكيكيها وفق ما يلي:

أ) المصدر الرئيسي: يأتي هذا الخط بشكل أساسي من المدرسة العراقية (الكوفية)، وعلى رأسها أبو مخنف، كما تدعمه روايات أخرى متناثرة عند الواقدي وابن سعد والمدائني، والتي حفظها لنا بشكل خاص البلاذري في كتابه (أنساب الأشراف) (الذهبي، 1963).

ب) فلسفة الرواية (الحبكة): هذه الرواية لا تعرف أو تتجاهل شخصية عبد الله بن سبأ تماماً (أمحزون، 2007)، وهي لا تحتاج إلى شخصية خارجية لتفسير ما حدث بالنسبة لها، فالفتنة هي صراع حقيقي داخل الجماعة المسلمة، ناتج عن انحرافات أو سياسات (اجتهادات) جديدة في عهد الخليفة عثمان، التي خالفت سيرة الشيخين أبي بكر وعمر، (الطبري، 1991).

ت) الأسباب الحقيقية، توجد عدة أسباب حسب الرواية منها، سياسة المحسوبية، حيث تركز هذه الروايات على اتهام الخليفة عثمان بالاستئثار بالسلطة هو وأقاربه من بني أمية، ويتم ذكر أسماء ولاة أمويين مثل الوليد بن عقبة في الكوفة (الهيثمي، 2001)، وعبد الله بن سعد في مصر، ومعاوية في الشام، واتهامهم بالفساد المالي أو الأخلاقي (ينظر:

فلهوزن، 1968)، وتتهم مروان بن الحكم، ابن عم الخليفة عثمان وكاتبه، بأنه هو من كان يدير الخلافة فعلياً (المقدسي، 1899)، كما تركز الروايات على الاقتصاد (السياسة المالية)، وتشير إلى إدارة بيت المال، وتشكو من أن الخليفة عثمان تأول في منح العطايا والهبات الكبيرة من بيت المال لأقاربه، ولنخبة قريش في المدينة (ابن تيمية، 1991)، بينما شعر الفاتحون (جنود الأمصار) بالتهميش، ومن بين الأسباب صراع الأجيال، فالروايات تصور صراعاً بين النخبة القرشية القديمة (السابقين) في المدينة التي حازت على الثروة والسلطة، وبين الجيل الجديد (قادة الفتح في الأمصار) الذين شعروا أنهم هم من بنوا الإمبراطورية بدمائهم ولكنهم لا يحكمون (الطبري، 1991).

ويمكن تفسير الأحداث، بأن التململ في الأمصار لم يكن تحريضاً، بل كان مظالم حقيقية (Grievances)، وأن قُرّاء الكوفة والبصرة، وهم النخبة الدينية والعسكرية، وهم من قادوا المعارضة، وليس الغوغاء (ابن الأثير، 1987)، وأن حصار الخليفة عثمان، لم تكن مؤامرة، بل كانت وفوداً من الأمصار جاءت للمدينة للاحتجاج، وتقديم مطالب واضحة تمثلت في عزل الولاة، تغيير السياسة المالية، وعندما فشلت المفاوضات بسبب ما قيل عن دور مروان بن الحكم، ثم تطور الأمر إلى حصار (الطبري، 1991).

أما فيما يتعلق بموقف الصحابة، فإن هذه الرواية تورط الصحابة في المدينة، ليس بالقتل، ولكن بالخذلان (Passive Consent)، هي تروي أن كبار الصحابة (علي، طلحة، الزبير) كانوا معارضين لسياسات الخليفة عثمان، وعندما حوصر، لم يدافعوا عنه بالفعالية الكافية، بل اعتزلوا في بيوتهم، لأنهم كانوا في خلاف سياسي عميق معه (ابن عساكر، 1995)، (ينظر: جعيط، 1999).

ث) الوظيفة (الهدف): لهذه الرواية وظيفة سياسية نقدية، هي تبرير الثورة على الخليفة عثمان، وتعد السردية التي تبنتها القوى المعارضة للأمويين لاحقاً مثل الشيعة، والعباسيين في بداياتهم، لتثبت أن الخروج على عثمان لم يكن فتنة، بل كان رداً مشروعاً على ظلم وانحراف (مُحدثات)، ونحن إذن أمام تاريخين متوازيين ومتنافيين تماماً للحدث نفسه، والمبحث التالي سيوضح كيف تعامل المؤرخون العظام مع هذا التناقض المستحيل.

المبحث الثالث: كيف تعامل المؤرخون الكبار مع هذا التناقض:

واجه المُصنفون الكبار في العصر العباسي (القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) وما بعده تحدياً هائلاً؛ إذ كيف يمكن كتابة تاريخ مُوحَّد (Universal History) لجماعة ممزقة أصلاً؟، وكيف يمكن التوفيق بين رواية المؤامرة التي تبرئ الصحابة، ورواية الصراع الداخلي التي تُدينهم أو على الأقل تُحمِّلهم المسؤولية)؟

لقد اختار كل مؤرخ من عمالقة التدوين منهجاً مختلفاً للتعامل مع هذا التناقض، وهو ما يكشف عن "مشروعه" الفكري الخاص وفق ما يلي:

1- الطبري (ت:310هـ/922م): منهج المُحدّث والجمع المتجاور:

يُعتبر محمد بن جرير الطبري العمدة الأكبر للتاريخ الإسلامي، وكتابه (تاريخ الرسل والملوك)، هو المصدر الأهم بلا منازع، فالطبري مُحدّث (عالم حديث) وفقيه ومفسر قبل أن يكون مؤرخاً، كان مشروعه يتمثل هو جمع تراث الأمة وحفظه، وقد

تبلورت في عصره (أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، عقيدة أهل السنة والجماعة، وكان أحد أسسها الترضي عن جميع الصحابة، والإمساك عما شجر بينهم، أي عدم الخوض في خلافاتهم. (ابن تيمية، 1991).

لم يحاول الطبري حل التناقض، بل قام بعرضه (Juxtaposition). لقد اتبع منهج المحدثين في التاريخ، والتي تميزت بالأمانة في النقل، حيث قام بصف الروايات المتناقضة جنباً إلى جنب كما هي، كل واحدة بإسنادها الكامل، وألقى العهدة على الراوي (والقارئ)، كأنه يقول للقارئ، من أسند فقد أحال، أي أنا نقلت لك الرواية بسندها، ومهمتك أنت (أيها العالم) أن تتحقق من صحة السند والمتن. (الطبري، 1991).

أما فيما يتعلق بأحداث مقتل الخليفة عثمان، يبدأ الطبري سرده بالاعتماد بشكل شبه الكامل على سيف بن عمر (صاحب رواية المؤامرة وابن سبأ) (الطبري، 1991)، وبعد أن ينتهي من رواية سيف الكاملة، ينتقل مباشرة إلى رواية أبي مخنف (صاحب رواية الصراع الداخلي)، وهذا الفعل التحريري (Editorial Act) ليس محايداً كما يبدو، فمجرد اختياره البدء برواية سيف وإعطائها هذه المساحة الهائلة، هو ترجيح ضمني لها، أو على الأقل تطبيع لها وجعلها السردية الأساسية (الطبري، 1991).

ويرى النقاد المحدثون أن الطبري كان يبني تاريخاً توفيقياً (Reconciliatory History)، الأمر الذي أرضى المحدثين (الذين يقدسون الإسناد) وأرضى العقيدة السنية أيضًا، التي تريد تبرئة الصحابة عبر رواية سيف، وفي نفس الوقت حفظ التراث العراقي المعارض عبر روايات أبي مخنف من الضياع، لقد قدم قائمة خيارات (A menu of options) للقراء، لكنه رتب القائمة بحيث يختار القارئ العادي الخيار الآمن المتمثل في رواية المؤامرة، (الطبري، 1991).

2- البلاذري (ت: 279هـ/892م) منهج المؤرخ والدمج الصامت:

كان البلاذري معاصراً للطبري، ولكنه اتبع منهجاً مختلفاً تماماً في كتابه العظيم (أنساب الأشراف)، فقد كان البلاذري كاتباً (أديباً) ومؤرخاً أقرب للبلاط العباسي، ولم يكن مُحدّثاً بنفس درجة الطبري، ويقوم مشروعه على كتابة تاريخ موضوعي (Thematic)، وسيري (Biographical) للنخب الإسلامية، وليس تاريخاً حولياً (سنة بسنة) (البلاذري، 1996).

لم يقم البلاذري بعرض التناقض، بل قام بدمجه (Synthesis)، وقد قام بإسقاط الأسانيد الجزئية، إذ نادراً ما قدم البلاذري رواية كاملة بإسناد واحد كما يفعل الطبري، وكان قد اعتمد على أسلوب الصهر (Amalgamation)، فكان يأخذ من عدة مصادر (أبو مخنف، الواقدي، المدائني، وحتى سيف بن عمر أحياناً)، ويصهرها في فقرة واحدة متماسكة، يبدؤها بكلمة قالوا أو رووا، ويقوم بترتيب رواياته ترتيباً موضوعياً، يجمع فيه كل ما يتعلق بأمر الخليفة عثمان في فصل واحد، وكل ما يتعلق بأمر الخليفة علي في فصل واحد (البلاذري، 1996).

أما فيما يتعلق بالتطبيق العملي (الفتنة)، فعند قراءة أمر الخليفة عثمان في (أنساب الأشراف)، نجد نصاً سلساً ومتدفقاً، لكن إذا دققنا فيه نجده مليء بالتناقضات الداخلية، والأهم من ذلك أن البلاذري بسبب ميله للمدرسة العراقية ومصادره المتعددة، قد حفظ لنا تفاصيل رواية الصراع الداخلي، من خلال عرض روايات تتناول مظالم الولاة، والسياسات المالية، وغضب أهل الأمصار، بتفصيل أكبر مما فعله الطبري (البلاذري، 1996).

هو يذكر ابن سبأ، ولكن بشكل عابر (Passingly)، وليس كمحرك أساسي للأحداث، كما يجعله الطبري من خلال روايات سيف، ويُعتبر البلاذري مؤرخاً أكثر من الطبري؛ لأنه تدخل في المادة وصنع منها تاريخاً (History) بدلاً من مجرد

روايات (Reports)، لكن عمله أخطر على الناقد؛ لأنه يخفي مصادره الأصلية داخل نصه، ومع ذلك يُعتبر كتابه (أنساب الأشراف) المصدر الأول للباحثين المحدثين الذين يبحثون عن الأسباب الحقيقية (الاقتصادية والاجتماعية) للفتنة؛ لأنه كان أقل التزاماً بتنقية التاريخ من الطبري (البلاذري، 1996).

3- ابن كثير (ت،774هـ/1372م) منهج المُنقّح والترجيح العقائدي:

يأتي ابن كثير بعد الطبري والبلاذري بأكثر من أربعة قرون، وتحديداً في العصر المملوكي، وفي هذا الوقت كان التاريخ قد أصبح خادماً لعلم العقيدة، وكان ابن كثير مُحدّثاً وفقيهاً على المذهب الشافعي، ومتأثراً بشدة بشيخه ابن تيمية، وكان مشروعه في كتابه (البداية والنهاية)، هو تنقية (Purification) التاريخ الإسلامي مما عَلِق به من شوائب والتي من أهمها الروايات الشيعية، والإسرائيليات، والروايات الضعيفة (ابن كثير، 1977).

ويتسم منهجه بأنه لا يعرض، ولا يدمج، بل ينقّح ويرجّح (Critiques and Preferences)، يعتمد على النقد الصريح، عندما يصل إلى روايات الفتنة، وهو يعتمد على الطبري كمصدر أساسي، فإنه يوقف السرد ويقوم بنقد الرواة، ويرفض صراحة روايات أبي مخنف؛ لأنه شيعي أو رافضي في نظره (الذهبي، 1963)، ويرفض أيضاً روايات سيف بن عمر؛ لأنه ضعيف ومتروك عند المحدثين، (ابن كثير، 1977).

ويبدو في كتاب ابن كثير التطبيق العملي من خلال التناقض الخفي، حيث يكمن التناقض المنهجي عنده، فهو يرفض الراوي سيف، ولكنه يقبل رواية المؤامرة التي تنسب له، ويرفض سند رواية ابن سبأ؛ لأنها من طريق سيف الضعيف، ولكنه يقبل فكرة المؤامرة، وفكرة ابن سبأ كحقيقة تاريخية (ابن عساكر، 1995)، لأنها تتوافق مع العقيدة السنية التي تدافع عن الصحابة (ابن كثير، 1977).

ويقوم ابن كثير في سرده النهائي بفلترة تاريخ الطبري، فيحذف الروايات المزعجة التي تدين الصحابة، وغالباً ما تكون من طريق أبي مخنف، ويبقي على الخط العام لرواية المؤامرة، حتى لو ادعى أنه يضعف راويها، ويمكن اعتبار أن ابن كثير يمثل الانتصار النهائي لرواية المؤامرة، داخل الخط السني الرسمي، وقد تحول التاريخ لديه من علم رواية كما عند الطبري إلى علم عقيدة، وقد حل التناقض عن طريق بتر أحد طرفيه، وأعني بذلك رواية الصراع الداخلي، والاعتماد الضمني على الآخر، أي رواية المؤامرة (ابن تيمية، 1991).

الخاتمة والنتائج:

بعد هذا التحليل المُفصَّل لكيفية تعامل المؤرخين المسلمين مع الفتنة الكبرى، نصلُ إلى مجموعة من النتائج الحاسمة التي تُعيد تشكيل نظرتنا لهذا التاريخ:

الفتنة كبناء تاريخي:

وتعتبر النتيجة الأهم، وهي أن تاريخ الفتنة كما وصل إلينا ليس تسجيلاً تصويراً لما حدث، بل هو بناء تاريخي (Historical Construct)، تم تشكيله في العصر العباسي (القرن الثاني والثالث الهجري/الثامن والتاسع الميلادي)، أي أنه ليس ما حدث، بل هو ما اختارت الذاكرة الجماعية أن تتذكره عن الحدث، بعد أن تم تحرير هذه الذاكرة، وتنقيحها على يد الإخباريين والمُصنفين.

الروايات كانعكاس لا نقل:

إن المادة الخام التي اعتمد عليها المؤرخون (الأخبار) لم تكن محايدة، فقد كشفنا (في المبحث الثاني) أنها تنقسم إلى خطين سرديين متعارضين، الأول منهما يتمثل في رواية المؤامرة التي تنسب إلى روايات سيف بن عمر، وهي رواية ذات وظيفة عقائدية واضحة، تهدف إلى تبرئة جيل الصحابة عبر خلق مؤثر خارجي تمثل في عبد الله بن سبأ، وبالتالي حافظ على قدسية الجماعة، أما الخط الثاني فهو رواية الصراع الداخلي، التي تنسب إلى أبي مخنف، وهي رواية ذات وظيفة سياسية نقدية، تهدف إلى تبرير الثورة على الخليفة عثمان بالتركيز على مظالم حقيقية (اقتصادية واجتماعية)، وهو ما خدم الأجندات المعارضة كالشيعة.

مصداقية الرواة (السند مقابل المتن):

أثبت النقد الحديث (كما في المبحث الأول) أن الاعتماد على نقد السند (أسلوب المحدثين) وحده غير كافٍ، فالرواة الذين وضعوا (اخترعوا) روايات مثل سيف بن عمر، أو الذين مالوا سياسياً مثل أبي مخنف، لا يمكن ببساطة رفضهم، أو قبولهم بالكامل، بل يجب تحليل متن رواياتهم (المضمون) للكشف عن الاتجاهات (Tendencies) والأجندات الخفية، وقد أصبح من شبه المؤكد لدى الباحثين المحدثين أن شخصية عبد الله بن سبأ، هي اختراع أدبي–سياسي من قِبَل سيف بن عمر لخدمة هدف محدد (ينظر: العسكري، 1974).

المصنفون كمحررين لا نقلة:

أظهر (المبحث الثالث) أن المؤرخين الكبار لم يكونوا مجرد "ببغاوات" تردد ما سمعت، بل كانوا محررين ذوي مشاريع فكرية، فالطبري قدم تاريخاً توفيقياً (Reconciliatory History)، يرضي أهل السنة والجماعة عبر تطبيع رواية المؤامرة بوضعها أولاً، مع حفظ التراث المعارض أمانةً، أما البلاذري فقد قدم تاريخاً تركيبياً (Synthesized History)، حفظ لنا فيه الأسباب الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية (رواية الصراع الداخلي) بشكل أغنى؛ لأنه كان مؤرخاً أكثر من كونه مُحدّثاً، فيما قدم ابن كثير تاريخاً عقائدياً (Theological History)، حسم فيه التناقض عبر رفض أو بتر الروايات التي تخالف العقيدة السنية المستقرة، حتى لو تعارض ذلك مع النقد الحديثي.

الفتنة كصراع دنيوي:

الخلاصة الحديثة الأبرز هي أنسنة الفتنة (Humanization)، فهي لم تكن صراعاً بين ملائكة (الصحابة) وشياطين (السبئية)، بل كانت صراعاً دنيوياً وطبيعياً (سياسياً واقتصادياً واجتماعيا) داخل مجتمع بشري يمر بتحولات هائلة انتقلت فيها الدولة من دولة دينية بسيطة إلى إمبراطورية عالمية، وكان ما حدث صراعاً على السلطة والثروة والشرعية، تم التعبير عنه بلغة دينية (ينظر: جعيط، 1999)، وفي النهاية فإن تاريخ الفتنة، هو الدرس الأعظم في النقد المصدري؛ لأنه يعلمنا أن التاريخ لا يُكتب مرة واحدة، بل يُعاد كتابته في كل عصر، ليخدم أغراض ذلك العصر.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً/ المصادر:

1. ابن الأثير، ع. (1987). *الكامل في التاريخ*، دار الكتب العلمية.
2. ابن تيمية، أ. (1991). *منهاج السنة النبوية*، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

3. ابن عساكر، ع. (1995). *تاريخ دمشق*. دار الفكر.
4. ابن كثير، أ. (1977). *البداية والنهاية*. مكتبة المعارف.
5. البلاذري، أ. (1996). *أنساب الأشراف*. دار الفكر.
6. الذهبي، ش. (1963). *ميزان الاعتدال في نقد الرجال*. دار المعرفة.
7. الطبري، م. (1991). *تاريخ الرسل والملوك*. دار الكتب العلمية.
8. المقدسي، ا. (1899). *البدء والتاريخ*. أرنست لرو الصحاف.
9. الهيثمي، ع. (2001). *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*. دار الكتب العلمية.

ثانيا/ المراجع:

1. أمحزون، م. (2007). *تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين*، دار السلام.
2. جعيط، هـ. (1999). *الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر*. دار الطليعة.
3. حسين، ط. (1947). *الفتنة الكبرى عثمان*. دار المعارف.
4. حسين، ط. (1947). *الفتنة الكبرى علي وبنوه*. دار المعارف.
5. الخلال، أ. (1989). *السنة*. دار ابن الجوزي.
6. الدوري، ع. (200). *بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب*. مركز زايد للتراث والتاريخ.
7. الطحان، م. (2002). *تيسير مصطلح الحديث*، مكتبة الحرمين.
8. العسكري، م. (1974). *عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى*. دار الغدير.
9. العلائي، خ. (1981). *جامع التحصيل في احكام المراسيل*. مكتبة النهضة العربية.
10. فلهوزن، ي. (1968). *تاريخ الدولة العربية: من الفتنة الأولى إلى نهاية الدولة الأموية*. لجنة التأليف والترجمة والنشر.